فى حضرة البائس المضحك

فى سبتمبر ٢٠١٧ يكون مر على ميلاد إسماعيل يس ١٠٥ أعوام، ورغم مرور هذه السنوات المائة، ما زال ملء السمع والبصر، فى القاهرة كان الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد «البائس المضحك» باهتا وغير موجود من الأساس.

منذ وفاة «إسماعيل» فى ٢٤ مايو ١٩٧٢ وميلاده ١٥ سبتمبر ١٩١٢ حياة مليئة بالبؤس والشقاء والتّرحال والفرح والسعادة المؤقتة، ما زال يراودنى الأمل فى إعطاء هذا «الكوميديان» حقه وأنا أعتقد أننا فى احتياج الآن إلى التعرف على هذا الفنان البائس الأسطورى، أكثر من أى وقت مضى، لا بد أن تكرّمه الدولة، وأن تعطيه حقه، وأرى فى مصر والوطن العربى ما يزال« إسماعيل يس» غير قابل للنسيان من الذاكرة الشعبية، ولا زالت أفلامه يراها الكبير والصغير، ويضحكون كأنهم يرونها للوهلة الأولى، إن الممثلين العظماء من أمثال «إسماعيل يس» مهددون بالزوال من ذاكرة المكتبات، فلا كرامة لفنان فى «مصر»، الأغلب هنا مهان ومدان ومنسى،

نحن نعيش فى وطن يُحكَم على أبنائه بالفناء وهم على قيد الحياة فما بالك بالذين رحلوا عن عالمنا!

لا يمكن أن تُمحى من ذاكرة الملايين ولا من ذاكرة الأجيال الماضية ولا القادمة البهجة التى رسمها الفنان «العملاق إسماعيل يس» وأشاعها فى طفولتنا جميعا، ومن المنتظر أن يشيعها فى طفولة ابنى عمر الذى لم يتجاوز عامًا ونصف العام، وما زالت أذكر حركات «بقه»، لم أتقابل معه ولم يسعفنى حظى السيئ لمقابلة العملاق الضاحك، ففى السنة التى مات فيها جئت أنا إلى الحياة.

رأيته على الشاشة الصغيرة، تعرفت على حياته من خلال عشرات المجلات والحكايات التى كتبت عنه فى الصفحات الفنية، كانت المسافة بينى وبين «المضحك البائس» طويلة وممتدة لعشرات السنين، حاولت إذابتها من خلال كسر الأزمنة والتقرّب إليه، كنت أسافر يوميا إلى عالمه، طلبت منه ورجوته أن يسامحنا جميعا، أن يغفر لنا تجاهلنا له، عندما حجزت الدولة على ممتلكاته بحجة عدم دفع الضرائب، أى ضرائب تريدها الدولة من فنان ملأ الدينا ضحكًا، كل يوم أتأكد أنه لا كرامة لفنان فى مصر، الكل هنا يسقط من الذاكرة، سواء كان قد رحل أو على قيد الحياة، أى دولة هذه التى تحكم على فنان بالموت وهو على قيد الحياة؟

الصدفة وحدها جعلتنى أكتب عنه، فسّر أعماله كما شئت، اشرح حياته كما تريد، ولكن سيظل ضوءً لا يشحب، المستقبل كله له،

حتى لو لم يكن أمامنا مستقبل للكوميديا سيظل «البائس القادم من السويس هو الضاحك التى دهسه الجميع».

عندما كلفنى أستاذى سليمان القلشى بتدوين تاريخ البائس الضاحك العظيم «إسماعيل يس» ترددت كثيرًا فأنا لا أجيد قراءة الأشخاص ولا التاريخ، كثيرًا ما انخدعت فى أشخاص ظننت فى لحظة أنهم أصدقائى، وكل مرة أقع بنفس الطريقة، وكأننى لم أتعلم شيئا .

ترددت كثيرًا فى الموافقة، حاولت الهرب من الكتابة عنه بـ«حجج» واهية، لكن فى النهاية استسلمت للخديعة وتورطت فى الكتابة عن شخص أحببته كثيرًا وحلمت أن أراه فى الحقيقة، ولكن الفروق الزمنية لم تسعفنى فى رؤيته أو مقابلته لذلك قررت الكتابة عنه، لكن من أين كل هذا؟ كان لا بد من البحث فى كل ما كتب عن البائس المضحك، عثرت على معلومات كثيرة من خلال مجلات وقصاقيص صغيرة، ووقع تحت يدى عشرات الكتابات والمعلومات عنه فهو كنز لا ينضب أبدا، ذهبت إلى السويس لعلنى أحصل على أى شيء يخص إسماعيل يس من عائلته هناك ولكن للأسف ضاع كل شيء حتى بيته لم يعد له أثر، فلا وجود لشارع أو ميدان باسم هذا المضحك، هذه مأساة أخرى تضاف إلى باقى المآسى التى عاناها إسماعيل يس فى حياته وبعد مماته.

قرأت كثيرًا عن عذاباته، لكننى اكتشفت «أن كل رجل ضاحك،

رجل بائس، وأن وراء كل ضحكة مأساة فى الواقع» كما قال كاتبنا محمود السعدنى الذى وصف «المضحك البائس» إسماعيل يس بأوصاف أراها ظالمة فى كتابه «المضحكون» ولم يكن موفقًا وتورط فى عبارات أبعد ما تكون عن إسماعيل يس فهو أطول المضحكين عمرًا، قادر على رسم البسمة على شفاه الجميع.

نحن فى حضرة البائس المضحك إسماعيل، كانت لديه موهبة فذه فاشترى بها الخلود الدائم، يبحث عن النص السهل دون تعقيد أو ملل ليضحك الناس عن كل حركة ولمسة وهمسة وكلمة، إنها مأساة «سُمعة» التى تتكرر مع كل المضحكين الأوائل لكنه الوحيد الذى لم ينطفئ نوره وظل مبهجا كعادته.

الكل خذله حتى أقرب الناس إليه، كانت حماته، وجدته، ووالده سبب مأساته، عاش «إسماعيل يس» أكثر من دوّامة، دائما ما كان الخريف يصل قبل موعده إلى وطن يكتفى بالضحكة كبديل عن الحزن الذى يلف حياة الملايين، وسط حكايات شد وجذب وصعود وهبوط، نشأ «سمعة» بين سحب الدخان، كان يحتاج إلى الراحة، ولحسن الحظ، كانت القاهرة هو البلد الذى ضمه، لكن سرعان ما سقط مرة ثانية.

لن يعود إسماعيل يس إلى الحياة مرة ثانية لينسج من جديد كوميديا قادرة على رسم البسمة على وجوه الجميع، لكنه بكل تأكيد سوف يظل عملاقًا قادرًا على تلوين حياتنا بالضحك، الكل حاول

ركب الموجة، لكنهم سقطوا، كل من جاءوا بعده حاولوا مرارًا.

لم يخرج حتى الآن من بيننا «إسماعيل يس» جديد من بين مئات الفنانين الذى جاءوا من بعده، الكل حاول تقليده، فشلوا، لكنها الكاميرا وحدها ستلتقط شغفه وهو يتشبث بالحياة، تهرب الضحكة منه لكن سرعان ما تعود تارة أخرى.

محمد رمضان الذي بنى شهرته من خلال مجموعة من الأفلام والمسلسلات التي لا تتعدى أصابع اليد، وكانت تروِّج للعنف والبلطجة وتجارة المخدرات والسلاح، وكل ما هو مسيء للأخلاق والقيم، تورط في تصريح غير منضبط، عندما وصف أفلام الكوميديان الكبير إسماعيل يس عن الجيش المصري في ذلك الوقت بأنها تسيء للجندي المصري، ونسي أو تناسى الممثل الذي بنى شهرته الواهية، أن ما فعله إسماعيل يس خلال ربع قرن من الزمان وما زال يملأ وجوهنا بالابتسامة عندما يطلُّ علينا عبر الشاشة الصغيرة، لم يكن من فراغ بل مجهود وعمل ومشقة.

ألم تكن تعلم أيها الأسطورة أنك قزم أمام هذا الكوميديان الذي رسم الضحكة علي شفاه الملايين من أبناء الشعوب العربية، أي كرم ونبل لهذا العملاق إسماعيل يس، عندما عرف الثراء المؤقت طريقه، في هذه اللحظة كان جواداً وكريمًا عندما دعم الجيش المصري بـ ٢٠٠٠ جنيه في ذلك الوقت، أي ما يعادل الآن مليون جنيه وأكثر.

أي إساءة تتحدث عنها، هل تعلم أن الزعيم جمال عبد الناصر

هو من أعطى وأمر بعمل مجموعة من الأفلام عن الجيش المصري، وكانت تتم تحت رعاية المسئولين في القوات المسلحة في ذلك الوقت، ولو أرهقت نفسك بعض الشيء وقرأت ما كتب في تترات الأفلام سوف تجد شكرًا وتقديرًا وعرفانًا من أسرة الفيلم للقوات المسلحة على مجهودها في دعم الفيلم.

والمتابع والمشاهد لأفلام إسماعيل يس وتحديدًا التي جسد فيه شخصية جندي، لها قيمة كبيرة في شكل كوميدي ساخر محبب إلى الكثير حيث صاغ عبر مشاهد متتالية مجموعة من المواقف الكوميدية الضاحكة إلى أن تأتي النهاية وقبلها بقليل تصل الرسالة التي يريدها صناع أفلام إسماعيل يس عن الجندي، وهو التزام والجدية والانضباط عبر شخصية الشاويش عطية وغيره ممن ظهروا معه في الأفلام.

لو قيل هذا التصريح من شخص آخر يمتهن مهنة أخرى غير التمثيل لعذرتُه ولم أعلق عليه، ولكن ما أحزنني أن تأتي من فنان يفهم حرفية المهنة ومتطلباتها من حبكة درامية ومشاهد كوميدية حتى تصل الرسالة في النهاية، ولكن عليك أن تعي أولاً أيها الفنان الذي تخطو خطواتك الأولي في عالم التمثيل تصريحاتك قبل أن تطلقها، فأنت أمام فنان كوميدي عظيم، بنى مجده الفني من خلال حياة البؤس والكآبة، وجعل الدنيا تضحك. ياله من شيء جميل ورائع وممتع ما فعله إسماعيل يس المضحك الذي جعلنا نؤمن أن الالتحاق بالقوات المسلحة شرف ما بعده شرف،

دعك من إسماعيل يس أيها الممثل الناشيء والتفت لحياتك الفنية وما تقدمه للناس وبعد ثلاثين عامًا، يمكن أن نستمع لك، ولكن ما قلتَه ذلة لسان وخطأ، عليك أن تعلن توبتك، فأنت في حضرة البائس المضحك إسماعيل يس.

العمر الذى تختزنه أحجار بيته الذى تحول إلى بنك، عندما استولت عليه الدولة فى واقعة ظالمة يشهد عليها المارة والداخلون والخارجون إلى هذا البنك، الذى قضى فيه «المضحك البائس» أجمل أيامه عمره، وفى ظل هذه الأجواء، وأنت فى القاهرة تسأل عن شارع باسم إسماعيل يس، وبعد فترة طويلة من الترحال والسؤال، تكون الأجابة لا يوجد شارع باسمه لا فى القاهرة، ولا حتى فى السويس، وكان موجود فى فترة من الفترات السابقة مسرح باسمه فى شارع بورسعيد فى حى السويس، وتم هدمه وإنشاء سينما رينساس فى بداية عام ٢٠٠٠، أى تكريم ينتظر هذا الكوميديان مادامت الدولة لا تعترف به كممثل أشاع البسمة فى نفوس الجميع.